﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ ﴾

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع : ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ أى أنه مع الجميع ، ومادام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول : خذ ذلك فى إطار قوله : ﴿ليس كمثله شىء﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين تحدثنا عن مجىء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شىء ، وما كان غائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ ﴾

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يخافون النار ، ولم يؤدوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهنا قول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٤٧) ﴾ [سورة الأنبياء]

هذه الموازين هي عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هى عدل فى ذاتها . وهنا يقول الحق : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ . نعم ، الميزان فى هذا اليوم حق ودقيق ، ولنذكر أنه قال من قبل :

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

(سورة الأنعام)

والميزان الحق هو الذى قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شىء فيه موزون ، وسبحانه هو الذى يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التى يؤدى بها كل كائن المطلوبَ منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾

(سورة الرحمن)

ولم نر السماء قذفت وألقت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون له نظام دقيق . والوزن فى يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففى هذا اليوم تبطل موازين الأرض التي كانت تعانى إما خللاً فى الآلة التى يوزن بها ، وإمّا خللاً فى الوزن ، وإمّا أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجرى فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ .

فكأن الميزان فى الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المِلْك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثانى يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان فى هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتى اليوم الآخر فلا ملك لأحد :

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك فى الدنيا قد استخلف فيه الحق

عباده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾

(سورة القارعة)

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الذين تخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه ـ سبحانه يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شىء فيه ، فحينا يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينا يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف

يجلسون ؛ لا هم فى الجنة ولا هم فى النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العقلية فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان . وقال بعض العلماء عن الميزان : إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التى أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موازين ، فهل لكل واحد ميزان أو لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام . . إلخ ، وهل سيحاسبنا ربنا تباعاً . أو أن هناك موازين متعددة ، بدليل أن سيدنا الإمام عليًّا عندما سألوه : أيحاسب الله خلقه جميعاً فى وقت واحد ؟ فقال : وأى عجب فى هذا ؟ أليس هو رازقهم فى وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جدًّا . وهيّنة فسبحانه لا يتأبى عليه شىء .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأعراف)

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتع بها نفسه ، ويأتى اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسر كل شىء ، وكما يقول المثل العام : خسر الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المُمَكَّن هو الذى يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال : مكّنتك من كذا . أى أعطيتك المكان ولا ينازعك أحد فيه . وقد مكننا سبحانه فى الأرض وجعل لنا فيها وسائل استبقاء الحياة ، وترف الحياة ، وزينة الحياة ، ورياش الحياة ، ولم تبخل الأرض حين حرثناها ، بل أخرجت لنا الزرع ، ولم تغب الشمس عنا بضوئها وإشعاعها وحرارتها . ما فى الدنيا يؤدى مهمته ، ولم نُمكّن فى الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله . وكان يجب ألا يغيب ذلك عن أنظارنا أبداً . فلا أحد منا مسيطر على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض ، ولكن الذى خلقها وجعلها مسخرة ، هو ربك وربها ؛ فأنت مُمكّن ، وكل شىء مستجيب لك . بتسخير الله له .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « معايش » جمع معيشة ، والمعيشة هى الحياة ، فالعيش هو مقومات الحياة ، ولذلك سموا الخبز فى القرى عيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مقوّم أساسى فى الحياة .

وقول الحق : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ دل على أن هناك من يشكر ، ومن الناس من يشكر نعم الله شكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصًا عند كل نعمة ، ومنهم من يشكر شكراًخاصًا لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة ، فعندما يبدأ فى الأكل يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويقول بعد الأكل : « الحمد لله » ؛ وهناك من يقول عند تناول لقمة واحدة : « بسم الله » وعندما يمضغها ويبلعها يقول : « الحمد لله » لأنها لم تقف فى حلقه ، وأيضاً حين نشرب علينا أن نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : « بسم الله » . وننتهى منها فنقول : « الحمد لله » وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة . ومن يفعل ذلك فلا تتأتّى منه معصية ، مادامت آثار شربة الماء هذه فى جسمه ؛ لأنها كلها « بسم الله » . فتحرسه من الخطيئة ؛ لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدت فيها نعماً كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تضيقون عليكم أبواب النعم من الله ؛ لأنكم

لو شكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن الحمق ألا نشكر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت فى سورة البقرة : خلق آدم ، والشيطان ، والقضية تتوزع على سبع سور ، فى سبعة مواضع موجودة فى سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة الحج ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طه ، وسورة ص ، إلا أن القصة فى كل موضع لها لقطات متعددة ، فهنا لقطة ، وهناك لقطة ثانية ، وتلك لقطة ثالثة ، وهكذا ؛ لأن هذه نعمة لابد أن يكررها الله ؛ لتستقر فى أذهان عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تُنسى ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من مرة . وإذا أراد الله استحضار النعم والتنبيه عليها فى أشياء ، فهو يكررها كما كررها فى استحضار النعم فى سورة واحدة فى قوله سبحانه : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

إنه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الرحمن]

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾

[سورة الرحمن]

وكل نعمة يقول بعدها: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الآذان لتستقر فى القلوب حتى فى الآذان الصماء؛ فمرة يأتى بها فى شيء ظاهره أنه ليس نعمة، مثل قوله:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾

[سورة الرحمن]

وجاء الحق بذكر كل ذلك؛ لأنه ساعة يجلى لنا الأمور على حقائها ونحن فى دار التكليف فهذه رحمة ونعمة منه علينا؛ لأن ذلك يدعونا إلى اتقاء المحظورات والبعد والتنحى عن المخالفات.

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد، فحين يدخل الابن إلى المدرسة نقول له: إن قصرت فى كذا فسوف ترسب، وأنت بهذا القول ترحمه بالنصيحة، فلم تتركه دون أن تبصره بعواقب الأمور، وأيضا ساعة ترى شراً يحيق بالكافرين، فإن هذا الأمر يسرك، لأنه لو تساوى الكافرون مع المؤمنين لما كان للإيمان فضل أو ميزة، فالعذاب نقمة على الكافر، ونعمة على المقابل وهو المؤمن.

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل جوانبها فى القرآن سبع مرات؛ لأنها قصة بدء الخلق، وهى التى تجيب عن السؤال الذى يبحث عن إجابته الإنسان؛ لأنه تلفت ليجد نفسه فى كون معد له على أحسن مايكون. ولم يجيء الكون من بعد الإنسان، بل طرأ الإنسان على الكون، وظل السؤال وارداً عن كيفية الخلق،

والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان فى الكون ، فأنت تستقرىء أجناساً فى الكون ، وكل جنس له مهمة . ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب فى خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكى يغذى الحيوان ، والحيوان ينفعك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب فى خدمتك . أمّا أنت أيها الإنسان فما عملك فى هذا الكون ؟ ؛ لذلك كان لابد أن يتعرف الإنسان على مهمته . وأراد الحق سبحانه أن يُعرِّف الإنسان مهمته ، لأنه جل وعلا هو الصانع ، وحين يبحث الإنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله فى كل ما صنع . وكان لابد أيضاً أن يستقبل الإنسان خبراً من الخالق . إنه ـ سبحانه ـ يُنزل لنا المنهج من السماء ويصاحب هذا المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول يخبر ، ثم نستدل بالمعجزة على صدق خبره . فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بآية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة فى سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله . وكان لابد أنْ نبحث لنتثبت من صدق البلاغ عن الله بالتعقل فى دعواه ؛ فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هى من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تتفجر عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لاننا نعلم أن العبقريات تأتى فى آخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، ونلتفت فنجده يتكلم كل الكلام البلاغى المعجز . وليس من المعقول أن يأتى بأخبار الكون وهو الأمى الذى مات أبوه وهو فى بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو فى السادسة ، وكذلك مات جده . ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذى أدراه ـ إذن ـ أنه سيمهل ويمد فى أجله إلى أن يصل إلى الأربعين ليبلغنا بمعجزته ؟ .

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، فيقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ

أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(سورة يونس)

وهكذا تتجلى الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يُوحَى إليه ، ويتأكد ذلك مرة ثانية فى قوله الحق :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبيّن لهم : هل علمتم عنى خلال عمرى أنى قلت شعراً أو حكمة أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت عليه من السماء .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشرى أن يبحث فيها ، ليعلم مهمته فى الوجود . وحين يبحث فيها ليعلم مهمته فى الوجود يجب عليه أن يترك كل تخمين وظن ؛ لأن هذه المسألة لا يمكن أن نأتى فيها بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لأى شىء ومهمة خلقنا ! فكيفية الخلق كانت أمراً غيبيًّا وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك . وقد حكم الله فى قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسموات والأرض وما بينهما أم للإنسان ، وقد حكم سبحانه فى هاتين القضيتين ، ولا مصدر لعلم الأمر فيهما إلا من الله سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل بحث بشرى فى هذا المجال بأنهم ضالون مضللون ، ولذلك قال ليحكم هذه

القضية ويحسمها ، ويريح العقول من أن تبحث فيها ؛ قال :

﴿ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فكأن الذى يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإنسان هو مضيل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن هذا القائل عضداً لله ولا سنداً ولا شريكا له .

وقص سبحانه علينا قصة خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائيًّا ويرجع إلى الوراء فلابد أن يجد أن الأمر منطقى ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرئى ، وليس التكاثر فى البشر فقط ، بل فيمن يخدمون البشر من الأجناس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالى وهو خمسة آلاف مليون ، وكلما عدنا ورجعنا إلى الزمن الماضى يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتى من اثنين ، وحلّ الله لنا اللغز فقال :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صحيح يثبته الإحصاء ويبقنه ؛ لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلا .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

وأبلغنا سبحانه بقصة خلق آدم ، وكيفية خلق حوّاء فهل أخذ جزءًا من آدم وخلق منه حوّاء ؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها ؟ وذلك يصح أيضا ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حوّاء ، وأعطانا النموذج فى واحد ، وقال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ .

و ﴿ منها ﴾ فى هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبعيضية ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها « محمد » ، بل جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم هنا يقول للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

وهذا هو أول بلاغ ، ثم أتبع ذلك :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فقبل النفخ فى الروح ستوجد تسوية ، فلمن تحدث التسوية ، ومن هو « المسوّى منه » ؟ . إن التسوية لآدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنّها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه من تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : « من ماء » نقول : نعم ، وإن قال « من طين » فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ ، فهذا جائز ؛ لأن الحمأ طينٌ اختمر فتغيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن فهى مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق :﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ .

وهكذا تكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ .

ويقول العلماء : إن المراد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذى نعرفه ، وأن آدم كان كالقبلة مثل الكعبة التى نتجه إليها عند الصلاة . ولكنْ لنا هنا ملاحظة ، ونقول : إننا لا نسجد إلا لله ، ومادام ربنا قد قال : اسجدوا فالسجود هنا هو امتثال لأمر خالق آدم . والنية إذن لم تكن عبادة لآدم ، ولكنها طاعة لأمر الله الأول . والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ؛ لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مدبرات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من هو بين يدى الله ، فلم يكن السجود للملائكة خضوعاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكنْ الملائكة المقربون لا يدرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لإبليس :

﴿ .. أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [سورة ص]

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته والذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [سورة الرعد]

وهناك الرقيب ، والعتيد والقعيد . وفى كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك ملك مخصوص بها ، ويبلغنا الحق بمسألة الخلق ، والخطاب لنا ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهذا ترتيب اخبارى ، وليس ترتيباً للأحداث . أو أن الحق سبحانه وتعالى طمر الخلق جميعاً فى خلق آدم ، والعلم الحديث يعطينا أيضاً مؤشرات على ذلك ، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة ، وكذلك الحيوان المنوى توجد فيه كل صفات الإنسان . ولذلك نجدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياة كل منا تتسلسل عن آخر ، فأنت من ميكروب أبيك ، وقد نزل من والدك وهو حى ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حى ، وعلى ذلك فكل كائن الآن فيه

كائن الآن فيه جزىء حى من لدن آدم، لم يطرأ عليه موت فى أى حلقة من الحلقات.

إذن فكلنا كنا مطمورين فى جزيئات آدم، وقال ربنا سبحانه:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ.. (١٧٢) ﴾

[سورة الأعراف]

ونقول: صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرجنا من ظهر آدم، وهكذا كان الخلق أولاً والتصوير أولاً، وكل ذلك فى ترتيب طبيعى، وهو سبحانه له أمور يبديها ولا يبتديها، أى أنه سبحانه يظهرها فقط، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكأنه يخاطبنا جميعاً.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) ﴾

[سورة الأعراف]

وعرفنا من هم الملائكة من قبل، وماهى علة السجود. ﴿ **فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين** ﴾.

والحق سبحانه يستثنيه بأنه لم يكن من الساجدين. وهذا دليل على أنه دخل فى الأمر بالسجود، ولكن هل إبليس من الملائكة؟ لا؛ لأنك إذا جئت فى القرآن ووجدت نصًّا يدل بالالتزام، ونصًّا يدل بالمطابقة والقطع فاحمل نص الالتزام على النص المحكم الذى يقطع بالحكم. وقد قال الحق فى ذلك:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ.. (٥٠) ﴾

[سورة الكهف]

وفى هذا إخراج لإبليس من جنس الملائكة، وتقرير أنه من الجن، والجن كالإنس مخلوق على الاختيار، يمكنه أن يعصى يمكنه أن يطيع أو أن يعصى، إذن فقوله الحق: ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾.

يعنى أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص .. أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار . ولذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة ، أى الذى يزهو فى محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفذها ، فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأن يطيع ، وصالحاً - أيضاً - لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة . فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف ذلك . وهب أنه دون الملائكة ومادام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)